القرآن والسلطان

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيا: شروق - تلكس: SHROK UN 93091

فهمي هويدي

القرآن والسلطان

هموم إسلامية معاصرة

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
هذا الكتاب

هذا الكتاب ينبغي ألا يصنف تحت أي من العناوين المبتدعة في زماننا هذا ، سواء كانت الإسلام الجديد أم الإسلام المستنير أم الإسلام التقدمي ، أم ما شابه تلك الصياغات التي لقيت رواجاً ، وازدحمت بها الساحة الفكرية خلال السنوات الأخيرة .

إنما غاية ما أتمناه أن يظل كل حوار أو رأي – وإن أخطأ – محكوماً دائماً بلافتة واحدة ، ومدرجاً دائماً تحت كلمة واحدة ، هي الإسلام ، وكفى !

ذلك أنه منذ أطلت علينا ظاهرة ما يسمى بالصحوة الإسلامية ، وبالأخص منذ حققت الثورة الإسلامية في إيران انتصارها الباهر على الشاه السابق بجبروته وأجهزته العاتية والقوى العظمى التي كانت تسانده . منذ ذلك الحين ، ظهرت على السطح شريحة جديدة من المفكرين والكتاب العرب «المعجبين» بالإسلام ، الذين استهوتهم بعض جوانب فيه ، ولجأوا إلى تنظير موقفهم وصياغته . فاقتطع كل منهم الجزء الذي أعجبه ، وأقام عليه منبراً ولافتة إسلامية ، ومضى يحدثنا من تحتها عن ذلك «الاكتشاف المدهش» !

وعن هؤلاء قرأنا – ولا زلنا – الكثير عن «الإسلام السياسي» و«الاجتماعي» و«الإسلام الثوري» ، لا شيء عن الإسلام الدين والرسالة ، لا شيء عن الإسلام العقيدة والشريعة ، ولكنهم اختاروا فقط «لقطات» فريدة وجذابة من المشهد كله .

بعين السائح ومنطقه مروا على الإسلام «وتعاطفوا» معه . ذلك أن السائح عندما يتعلق بشيء ما في بلد ما ، فإن وقفته أمامه قد تطول ، وإعجابه به قد يملأ عليه قلبه وعقله ، ومعرفته به قد تتعدد وتزداد عمقاً ، لكن انتماءه الحقيقي يظل لشيء آخر ، وفي بلد آخر !

وهكذا فعل بعض مفكرينا من «الإسلاميين بالسياحة» ، تعاطوا الإسلام

كمعجبين ، فأسمعونا إطراءً وكلاماً حلواً وحماسياً أحياناً ، لكن انتماءاتهم ظلت إلى شيء آخر .. وربما إلى عالم آخر !

ولا اعتراض لنا على ذلك ، إلا من باب واحد ، عندما يحاول هؤلاء أن يشكلوا من بيننا « وفوداً سياحية » تطوف بأجنحة الإسلام ، لكي نشاركهم الاعجاب بتلك اللقطات والأركان الفريدة والجذابة التي اكتشفوها فيه .

ذلك أن المطلوب ليس أن نحول المنتمين إلى معجبين ، فتلك خطوة إلى الوراء بكل تأكيد . إنما المطلوب أن نخطو إلى الأمام ، فنحول المعجبين إلى منتمين .

وإذا كان يرضي كثيرين أن يتزايد – مثلاً – عدد الذين تستهويهم حيوية الإسلام السياسي أو فاعلية الإسلام الثوري ، إلا أنه يسعدهم أكثر أن تتسع العلاقة وتتطور من الاعجاب إلى الاعتقاد ، أو من الحب إلى الزواج إذا جاز التعبير !

ثمة فريق آخر من الكتاب والمفكرين انتهج خطاً مختلفاً . فهم في مناخ « الصحوة » صعدوا إلى المسرح . لا لكي يستظلوا بمظلة الإسلام ، وإنما لكي يسحبوا تلك المظلة إلى مسرح مختلف ، في موقع مختلف .

هم هنا لم يلتحقوا بالعربة ليطوفوا مع السائحين ويشاركونهم الاعجاب بالإسلام ، ولكنهم حاولوا أن يقفزوا إلى مقعد القيادة ليذهبوا بالعربة كلها إلى مكان آخر ، في اتجاه آخر !

لقد عهدنا منذ زمن طويل أن يسعى الحكام والكهنة إلى توظيف الدين لصالحهم وفي خدمة سلطانهم وأطماعهم ، وهو سعي لم يتوقف حتى يومنا هذا . لكننا نشهد في الآونة الأخيرة إضافة جديدة إلى فرق المستثمرين للدين ، تضم بعض المثقفين الذين شرعوا في انتقاء ما تصوروه « مفيداً » و « إيجابياً » في الإسلام ، تمهيداً لاجتزاء تلك المساحات وإقامة أبنية أخرى فوقها ، مطعمة بالإسلام استجابة للمناخ العام ، لكنها ليست من الإسلام في شيء !

وأكاد أقول إننا أمام « ظاهرة » جديدة ، فبعد أن كان اليمين ممثلاً في أولئك الحكام والكهنة هو الذي يسعى جاهداً لاستخدام الدين وتوظيفه ، فإن بعضاً من أهل اليسار يحاول الآن استخدام السلاح ذاته ، مع تقليمه وتطويعه باسم التجديد والمعاصرة والتقدم ، وتحت لافتات لا تخلو من بريق مثل الإسلام الجديد والتقدمي والمستنير .

وهنا أحب أن أسارع بإيضاح أمرين :

الأول : انني في هذا السياق لا أسجل موقفاً ضد تلك التيارات ، وان اختلفت معها ، كما أني لا أحاول أن أستعدي عليهم أحداً ، بل أذهب إلى الظن بأن المؤمنين بالله وكتبه من أهل اليسار هم أقرب إلى الفهم الصحيح للإسلام من كثيرين غيرهم ، من حيث وعيهم المفترض بقضية العدل الاجتماعي . ولكني فقط أسجل موقفاً ضد محاولة الانتقاء من الإسلام وتفصيل بعض أجزائه على قياسات بذاتها . ضد تفتيت الإسلام وتقطيع أوصاله ، وإن تم ذلك بحسن نية ولأهداف يجدها أصحابها شريفة ونبيلة .

الثاني : أنه من التبسيط الشديد للأمور ، وربما من السذاجة الشديدة ، أن يتصور أحد أنني ضد التجديد والمعاصرة والتقدم . لأن العكس هو الصحيح تماماً . فموقفي ، الذي أرجو ألا يكون بحاجة إلى إعلان ، هو على طول الخط مع المخلصين الواقفين تحت تلك الشعارات المضيئة ، شريطة أن نظل ثابتين على ارضية الإسلام وتحت رايته ومظلته .

ليس هناك إسلام تقدمي وآخر رجعي ، وليس هناك إسلام ثوري وآخر استسلامي ، وليس هناك اسلام سياسي وآخر اجتماعي ، أو إسلام للسلاطين وآخر للجماهير .. هناك إسلام واحد ، كتاب واحد أنزله الله على رسوله ، وبلغه رسوله إلى الناس .

وبعد « البلاغ » صارت « الأمانة » في أعناق الناس ومن مسؤولياتهم .

فإذا تعددت الاجتهادات يميناً ويساراً ، وإذا تراوحت الممارسات صعوداً وهبوطاً أو سقوطاً ، وإذا أحسن البعض فهم الإسلام أو أساء ، فذلك شأن المسلمين أولاً وأخيراً ، وينبغي ألا يُحَملَّ بأي حال على الإسلام .

وإذا كان التحفظ ضرورياً على ما يقوله البعض من خارج الدائرة الإسلامية ، فإن التحفظ يصبح أوجب إزاء ما يردده البعض من داخل البيت الإسلامي !

ذلك أنه إذا كنا قد عرفنا فريقاً يرى الإسلام بعين السائح ، وفريقاً آخر يحاول أن يجر مركبة المعجبين بالإسلام وغيرهم في اتجاهات أخرى بعيدة عن الإسلام ، فإن هذا الفريق الثالث يرتكب ما هو أفدح . انه بانتهازيته حيناً ، وضيق صدره حيناً ، وضيق أفقه أحياناً ، يكاد يقود المركبة كلها إلى الغرق !

فالذين يحاولون تلبيس عمامة الإسلام وعباءته لكل شيء ، كالذين يضيقون من الدين حتى يكادون يمسكون بخناق الناس ، كالذين يسخرون النصوص لخدمة السلاطين وتجار الدنيا .. هؤلاء جميعاً يقفون في مربع واحد ، من حيث إنهم يحملون الإسلام بما لا يحتمل ، ويعبثون بالدين – وإن حسنت نواياهم – توسيعاً وتضييقاً !

إن هؤلاء الذين يتقدمون الصفوف باعتبارهم نماذج للفكرة . ويعتلون المنابر باعتبارهم أصحاباً شرعيين لها ، ويخاطبون الناس كأنما بأيديهم مفاتيح السماء ، فيحرمون ويحللون ويزكون ويكفرون ، ويكادون يوزعون صكوك الغفران وبراءات الذمة في الآخرة . هؤلاء أشد اضراراً بالإسلام من غيرهم ، لأن إساءات الآخرين تظل محسوبة عليهم في نهاية الأمر ، ولكن إساءات هؤلاء وحماقاتهم يحملها البعض على الإسلام ، وهنا الخطر الجسيم .

وغير هؤلاء وأولئك ، هناك الذين يحاولون شق الطريق وسط الزحام ، ساعين إلى تقديم فهم صحيح للإسلام ، وقراءة رشيدة لنصوصه ، تنطلق من وعي بالأصول ووعي بالواقع ، وتتعامل مع «الكتاب والحكمة» جنباً إلى جنب . وسبيلهم إلى ذلك كلمة طيبة يقولونها لوجه الله ، ولاجل هذا الدين المتين ، بعيداً عن الالتواء والافتراء والافتعال .

وإذا كان لهذا الكتاب من طموح ، فإنه لا يتجاوز هذه الدائرة . دائرة الساعين إلى فهم صحيح للإسلام ، ورؤية صحيحة لهموم المسلمين في شؤون الدين والدنيا .

ولا أحسب انه قال ، ولا كان بمقدوره أن يقول ، «كلمة أخيرة» في شيء مما طرحه للبحث والمناقشة . ولكنه فقط حاول أن يقول «كلمة واحدة» لا أكثر ، أملاً في أن يسهم آخرون في الحوار ، من أجل بلوغ تلك الغاية .

وربما كانت ظروف اعداد الكتاب تلقي المزيد من الضوء على طموحاته ..

وللأمانة أقول إن فكرة الكتاب لم تكن واردة في البداية . فقد كان شاغلي الأول أن أناقش على صفحات مجلة «العربي» الكويتية تلك الهموم الحياتية التي يعاني منها المسلمون في الفكر والتطبيق . كنت استشعر بعضاً من تلك الهموم كمعايش لها وواحد من أبنائها . وكنت أقرأ بعضها في سطور الصحف وتصريحات «أولي الأمر» ، وفي ممارسات وخطابات الشباب الصاعد الحائر .

وخلال السنوات من ٧٧ إلى ٨٠ ، كانت صفحات مجلة العربي هي المنبر الذي أتيح لي أن أشارك من خلاله بكلمتي في تلك الهموم ، معترضاً ومحتجاً ، أو مدافعاً ومتهماً ، أو شارحاً ومذكراً .

وهو موقف لا بد أن يحسب «للعربي» ، حيث فتحت لي صفحاتها بعد أن ضاقت بي صفحات أخرى ، واحتملت كتاباتي ، حيث لم تحتملها منابر أخرى .

وخلال تلك الفترة كانت الخطابات تتوالى حاملة سؤالاً واحداً من قراء واخوة أعتز بثقتهم . وكان السؤال هو : لماذا لا تجمع هذه المقالات والأبحاث في كتاب ؟ وظن قارئ كريم من حلب انني لم أجد ناشراً مستعداً لإصدار الكتاب ، فعرض عليَّ في خطاب «شخصي جداً» ، أن يقوم هو بتمويل المشروع ، وتحمل أعبائه المالية !

لكن فكرة الكتاب ظلت مؤجلة لا لسبب ما ظنه أخي الحلبي ، ولكن لسبب آخر يدركه جيداً الذين عملوا بمهنة الصحافة ، وأصيبوا بآفاتها !

ذلك أن من آفات العمل بالصحافة – التي تشرفت بالانتماء إليها طوال فترة تكاد تصل إلى ربع قرن – أنها زرعت في أعماقنا حس الاهتمام بالجديد دائماً . بما سينشر في الغد لا بما نشر في الأمس . لان ما تم نشره هو في أصول المهنة في حكم «الخبر القديم» الذي ينبغي أن تطوى صفحته ، كما ينبغي ألا يتوقف عنده الصحفي الجيد والمخلص لعمله ، لأنه مطالب كل صباح بالركض بحثاً عن الجديد للغد ... كأنما اختار أن يظل راكضاً أبداً ، كلما ظل هناك غد !

بهذا المنطق تعاملت مع تلك المناقشات والأبحاث التي نشرتها في مجلة العربي . ورغم أن ما تم نشره ليس هو كل ما كتب ، إذ كثيراً ما تعرضت المقالات لاختصار وضغط لتناسب الحيز المحدد لها على صفحات العربي ، أقول إنه رغم ذلك ، فانني ظللت أسير فكرة رفض العودة إلى «الخبر القديم» ، والركض كلما أمكن وراء الجديد .

متوهماً أنني بذلك أظل ملتزماً بأصول المهنة . وسائراً على درب الصحفيين المخلصين ، بقيت على هذه الحال خلال السنوات التي انقضت ، حتى اكتشفت مؤخراً انني خسرت على الجبهتين : الصحافة والكتابة .

ذلك أن قضية الخبر الجديد القديم ، لم تكن واردة في مجلة ثقافية ، فضلاً

عن كونها شهرية ، الأمر الذي حال بيني وبين فرصة تحقيق الإضافة التي توهمتها إلى عالم الصحافة .

وفي الوقت ذاته ، ظل الكتاب تائهاً في المجهول ، وأصوله حبيسة ، أدراج مغلقة ، الأمر الذي حال بيني وبين تحقيق فرصة تمنيتها « لتسريبه » إلى عالم الكتب !

وقد حفزني اكتشاف هذه النتيجة المؤسفة للمسارعة إلى تدارك ما فات ، ومحاولة تهيئة تلك المقالات والأبحاث لتصدر في كتاب ، إذا لم يكن مفيداً في طرح هموم الضمير المسلم ، فقد يكون مفيداً كشهادة تسجل نوعية تلك الهموم في الزمن الرديء الذي نعيشه . وشجعني على المضي في المحاولة ، تلك المبادرة المشكورة من جانب دار الشروق ... حتى جاء الكتاب أخيراً على هذا النحو الذي نحن بصدده .

فإذا كنت قد أصبت فيما سعيت إليه ، فانني اسجد لله حمداً وشكراً ، وإذا كنت قد أخطأت ، فانني أسجد له سبحانه ، ملتمساً العفو والمغفرة .

وحسبي أجر واحد ، وعد الرسول به المسلم إذا اجتهد وأخطأ ..

وإن كنت لا أخفي أنني بذلت غاية جهدي ، لعلي أفوز بثواب من اجتهد وأصاب ..

وهل يلام مسلم إذا بات طامعاً في أجرين ؟؟

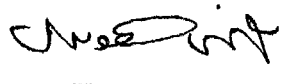

الفصل الأول

نقطة نظام !

- القرآن أم السلطان ؟
- الحرية أولاً ...
- من « صاحب القداسة » ؟
- وثنيون أيضاً : عبدة النصوص والطقوس
- من يسبح ضد التيار ؟
- العقل في قفص الاتهام ..
- نحو قراءة رشيدة للإسلام .

القرآن أم السلطان ؟

من المسؤول عما وصل إليه حالنا : القرآن أم السلطان ؟

و« حالنا » الذي أعنيه تعرفونه بكل تأكيد . وعلى من لم يبلغه النبأ أن يتفرس في عيون الناس في الشارع العربي . يقرأ أي صحيفة صباحية . يدير مؤشر المذياع مروراً بعواصم المشرق والمغرب . يتطلع إلى المرآة . يختلس نظره إلى أعماقه . عندئذ ، سيجدها كلمة منقوشة في كل العيون ، مكتوبة بكل الأحرف ، منطوقة بكل لهجات أمة العرب : الهزيمة !

مهزومون نحن ومشهور إفلاسنا في كل الأسواق وعلى كل الجبهات ، رغم ما نزعمه من انتصارات هنا وهناك ، ورغم ما نكدسه من أرصدة هنا وهناك ، ورغم ما نملكه من ثروة مدفونة أو مكتشفة .

مهزومون – هكذا صرنا وسنظل – منذ هزم الإنسان في بلادنا ، وتحول من كائن حي إلى « شيء » . منذ سحب منه دوره كفاعل ، وبات صفة أو مفعولاً به !

ومنذ وقعت تلك الواقعة ، خرج المسلمون من التاريخ وصاروا جزءاً من الجغرافيا !

لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولأنه سبحانه يدافع – فقط – عن الذين آمنوا ، ولأن سنن الله في الكون ماضية بغير محاباة ولا مجاملة .. ولأن التاريخ لا ينتظر أحداً ، لأجل هذا كله ، نُحِّي المسلمون عن مقعد قيادة البشرية ، يوم أن فقدوا مؤهلات هذه الصدارة .

ومنذ ذلك الحين سلمت عجلة القيادة لغير المسلمين ، وخرج من عالم الإسلام من « القمرة » وتحولنا جميعاً إلى « رقعة » في خريطة العالم ، مكدسة بالبشر ، ومزينة ببعض المال والنفط !

وكما أن التاجر عندما يفلس يعود إلى أوراقه القديمة ، يفتش وينقب ، فإن

البعض منا يفعل الشيء ذاته . يقلب الأوراق والأضابير ، ويردد : القرآن هو المسؤول !

حتى يبرئ نفسه والآخرين ، وحتى لا يقع في محظور المواجهة مع أحد من البشر ، يشير بأصابع الاتهام إلى القرآن ، ويحمله المسؤولية من البداية إلى النهاية .

البعض يقولها تلميحاً وعن استحياء ، وهناك من يقولها صراحة ليريح نفسه ، وليزيح المسؤوليه عن كاهله .

سمعت من الأستاذ محمد حسنين هيكل الكاتب البارز ورئيس تحرير الأهرام الأسبق أنه شهد حواراً قريباً من هذا السياق بين الرئيس الباكستاني الراحل ايوب خان وبين الرئيس جمال عبد الناصر ، بدأ بتساؤل طرحه الرئيس الباكستاني حول سبب تخلف الشعوب الإسلامية . وكان رد الرئيس عبد الناصر أن التخلف له أسبابه المعروفة ، من سوء توزيع للثروة ، وسوء استغلال الموارد ، ونهب استعماري دام عشرات السنين .

لكن الرئيس الباكستاني عاد يسأل : لماذا الشعوب الإسلامية بوجه أخص ؟

وعندما مضى الرئيس عبد الناصر يشرح الأسباب التي ذكرها ، سارع الرئيس الباكستاني إلى القول : لا يا سيادة الرئيس ، إن هناك خطأ ما عند المسلمين . خطأ في الإسلام ذاته .. خطأ في الكتاب (يقصد القرآن الكريم) ! !

هكذا يزعمون !

نحن متخلفون والقرآن بيننا . مهزومون والقرآن بيننا . مشتتون والقرآن بيننا . سلبيون متواكلون . عاجزون . متنابذون . متقاتلون . إلى آخر مفردات قاموس النقائص والمعايب التي يرددونها !

مبهورون بالغرب ، مشدودة أبصارهم إلى «القبلة» الجديدة ، يقولون : أنظروا وتأملوا ماذا فعل الذين يعيشون بغير قرآن ؟؟

وهي مدرسة الهزيمة في التفكير «الإسلامي» والعربي ، لا تتردد في أن تنقض على كل قيمة إيجابية . تهدمها بل تنسفها نسفاً ، عندما تجد ثغرة في التطبيق ، أو سيئة في الدعاة والمعتنقين . منبتة الجذور عن التربة ، منصرفة قلوب أصحابها قبل أعينهم إلى عالم غير عالمنا ، في تعلق أبله بالغرب ، وتبعية عمياء لقيمه .

عندما ينتكس العرب ، يلعنون العروبة ويطالبوننا بتغيير هويتنا . وعندما ننهزم

في معركة ضد عدو ، يلعنون القتال ويسفهون النضال ، ويطالبوننا بالركوع والتسليم لأننا لا نملك مقومات التصدي ولا أوراق اللعبة .. وعندما نفشل في السباق الحضاري ، يطالبوننا بالخروج من الحلبة ، والاكتفاء بتقليد الغرب كالقرود ومحاكاتهم كالببغاوات .

بالمثل يكررون المنهج ذاته مع الإسلام . عندما يسقط المسلمون ضحية التخلف والفقر ، يحاكمون القرآن ، ويبحثون عن وسيلة للتحلل منه ، بل والنيل منه كلما أمكن !

وفي تاريخنا الحديث ، فإن « المدرسة الكمالية » كانت هي النموذج الذي طبق هذا المنهج بكل التزام وشدة . عندما حمَّل كمال أتاتورك كل رذائل مرحلة السقوط في الخلافة العثمانية على الإسلام والعروبة . وقرر – فيما تصوره خروجاً من المأزق – أن يشطب من قاموس الحياة التركية كل ما هو إسلامي وعروبي ، من حروف اللغة العربية إلى آذان الصلاة . وأن يدفع تركيا دفعاً إلى تقليد الغرب ، حتى في الثياب وأغطية الرأس !

ولسنا بحاجة إلى الإسهاب في وصف ثمرة هذا الجهد «الكمالي» ، يكفي ما نشهده الآن – وبعد نصف قرن من محاولته – من مسخ للشخصية التركية ، التي تقطعت جذورها الشرقية والإسلامية من ناحية ، ولم تتصل بالغرب ، كما توهم أتاتورك ، من ناحية أخرى . حتى باتت لا هي شرقية ولا هي غربية ، ودفعت الثمن باهظاً ، ولا زالت ، من جراء تلك الخطيئة الكبرى .

* * *

هل القرآن حقاً هو المسؤول عما أصابنا ؟

هل الإسلام هو المسؤول عن تخلف المسلمين ؟

في ظل القرآن ، انتصر المسلمون على الروم والفرس ، وهما القوتان الأعظم في الزمن القديم .

وفي ظله عبرت طلائعهم إلى أوروبا ، وطرقوا أبواب روما وفيينا . وحملوا مشاعل النور والمعرفة إلى ذلك العالم «المتخلف» . ولن نطيل في قراءة صفحات المجد الغابر والتباكي على الأيام الخوالي . ولكننا فقط سنقف عند مرحلة تاريخية محددة ، ونلقي نظرة على جانبي الساحة ، حيث كان يقف أبناء القرآن في ناحية ،

والآخرون الذين تصرعنا الآن قيمهم ويسيل لعابنا على كل ما يصدر عنهم ، في ناحية أخرى . سنلقي نظرة لنستدل ونحاول أن نفهم .

لنقف عند القرن العاشر الميلادي ، سنة ألف على وجه التحديد * .

في ذلك الوقت كانت أوروبا مقطوعة الأنفاس من الهلع ، ظناً منها أن القيامة ستقوم في هذا العام . وكان الناس يندفعون في لهفة إلى الكنائس والأديرة ، يصلون ويطلبون التوبة . وكان الإمبراطور أوتو الثالث ، وهو في العشرين من عمره ، يقضي أيامه يمشي حافياً إلى الحج بين روما وجبل جرجانوس بناء على أوامر القديس روسولادوس ، لأن المسيح سوف يأتي ليقتص من الناس .. بينما كان هذا هو «حال» أوروبا ، كان واحد من أبناء القرآن هو ابن سينا يعلن في خراسان ، وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره ، انه فرغ من العلوم كلها لم يتجدد له له بعدها شيء . وكان البيروني يعلن النظرية التي قال بها كوبرنيك من بعد : أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس . وكان الحسن بن الهيثم يكتب للناس قوانين الضوء ويجري التجارب على المرايا والعدسات المخروطية والكروية والأسطوانية ، وعلى آلة التصوير .

ليس هذا فقط ..

كان في دكان نساخ واحد في قرطبة ١٧٠ جارية تعمل بالنسخ . وفي مكتبة بني عمار بطرابلس كان يعمل ٨٠ نساخاً ليل نهار ، لإثراء المكتبة وإغنائها . وكان ابن النديم ينشر في بغداد كتاب الفهرس يجمع به أسماء خمسة آلاف مجلد مما ألف أبناء القرآن ، في الفلسفة والفلك والطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء والتاريخ والأدب والدين . في وقت أصدرت فيه هيئة الدومينيكان بأوروبا قراراً يحرم على الأعضاء دراسة الفلسفة أو تعاطي الفنون والعلوم . وبينما نبلاء أوروبا يتحايلون على التهرب من هذا الفن العسير : القراءة والكتابة . وبينما دير القديس جالان لم يكن قد عرف في عمره الذي يمتد قروناً راهباً واحداً يقرأ ويكتب .

في ذلك الزمان أيضاً ، زار واحد من أبناء القرآن ، هو الرحالة الطرطوشي ، بلاد الفرنج ، وهو المسلم الذي يتوضأ خمس مرات في اليوم ، فدهش للقذارة

---

* أنظر بحث الدكتور شاكر مصطفى : أثر العرب في حضارة الغرب والعالم .

التي رآها عندهم . حيث لم يكن الواحد منهم يستحم إلا مرة أو مرتين في السنة ، ولا تغسل الملابس حتى لا تتمزق . حتى روت إحدى قصصهم أن فتاة كانت تباهي حبيبها بأنها استحمت في السنة الماضية !

كان أبناء القرآن يحفظون أن النظافة من الإيمان ، وكان الآخرون يقولون إن العناية بالجسد خطيئة وان القذارة مظهر العفاف والتقوى .

هكذا كان أبناء القرآن ، وهكذا كان الآخرون .

الآن هم على سطح القمر ، وأقدامنا مغروسة في قاع المستنقع !

والقرآن هو هو لم يتغير ولم يتبدل ! !

في القرآن « المتهم » نقرأ :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد – ١١) – « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون » (هود – ١١) .

ونقرأ أيضاً : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم (الشورى – ٣٠)

ونقرأ : « وان ليس للإنسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى » (النجم – ٣٩)

و .. « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » ؟ (الاعراف – ١٤٧) .

في الإسلام ، ليس الإنسان أسير قبضة « الكارما » التي تسلبه إرادته ، كما كان يقول الهنود القدماء . وليس هو العاجز الذي تسلط الآلهة رسولها « تمسيس » لينتقم منه إذا اختار ، كما كان يقول اليونان . وليس هو ضحية « الطالع » كما كان يقول البابليون . إذا ولد تحت واحد من نجوم السعد كتبت له السلامة ، وإذا ولد تحت أحد نجوم النحس فهو ماض إلى النهاية على طريق الندامة .

الإنسان في القرآن الكريم « مخلوق مكرم » . وهو في فقه المسلمين « مخلوق مكلف » ، أو « مخلوق على صورة الخالق » . حتى قال المعتزلة ان البشر هم الذين يصنعون مصائرهم ، واختلف معهم « الجبرية » الذين اعتبروا أن الإنسان مسير وليس مخيراً ، وهو ما اعتبره الامام محمد عبده بمثابة « هدم للشريعة ومحو للتكاليف ، وابطال لحكم العقل البديهي » .

وها هو واحد من اعلام الصوفية تبلغ به الثقة في نفسه وفي الله حداً يدفعه إلى القول : بانه يقاوم الأقدار بالأقدار ! ، بل يذهب الحديث القدسي إلى القول بأن : « لله عباداً إذا أرادوا أراد » .

لعلنا نستطيع الآن أن نجيب عن السؤال : ما الذي جرى إذن . لماذا كان الصعود ولماذا كان السقوط ؟

باختصار وتبسيط شديدين : كان بيدنا سلاح ، استخدمناه مرة للانتصار ، ثم ألقيناه فمضينا على طريق الهزيمة والاندثار .. ثم جاء زمن لم يملك فيه أحد شجاعة محاسبة الذين ألقوا السلاح ، فكان المخرج أن يحاكم السلاح ذاته !

وقد تتعدد الآراء في رصد الأسباب وقد تختلف ، لكن ما لا خلاف حوله هو أن القرآن بريء مما هو منسوب إليه في هذه القضية على وجه التحديد .

ولا بد هنا أن نتأمل جيداً ماذا فعل الإسرائيليون بالتوراة . من حصاد أساطيره وخرافاته ، وكل ما فيه من فكر عنصري متخلف . كيف شهروه في وجه الجميع ، وتحصنوا به ، ثم حولوا خرافاته إلى دولة ، وطوعوا أساطيره لتخدم التوسع في كل اتجاه .

لو أنها مسألة « كبت » ، وفعل الإسرائيليون ما فعلوه بالتوراة ، بكل ما فيه . ماذا كان ينبغي أن نفعل نحن والقرآن بين أيدينا ؟

لقد صدق أمير المؤمنين عثمان بن عفان عندما قال : « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » . وفي قوله الكفاية والخلاصة .

وإن كان لي أن أضيف هنا فانني أقول بغير تردد ان « حالنا » الذي بلغناه هو من مسؤولية السلطان لا القرآن . واننا نستطيع فعلاً أن ننتصر بالقرآن ، كما اننا نستطيع أن ننتحر بالقرآن . المهم هو ما نختاره ونقرره نحن . ما نعد أنفسنا من أجله . ما نسعى جادين لتحقيقه .

وتلك مسؤولية « السلطان » بالدرجة الأولى ، ليس فرداً واحداً أعني ، ولكنه كل من يمارس « سلطاناً » سياسياً أو فكرياً في الأمة . كل الذين بيدهم مفاتيح الحل والعقد . كل أولي الأمر ، الذين لم يكفوا عبر القرون عن مطالبتنا « بالسمع والطاعة » فيما نحب وما نكره !

لا عجب والأمر كذلك إذا كان السلف من المسلمين قد ثار بينهم جدل طويل طويل وحاد حول هذا « السلطان » ، حتى ذهب بعضهم إلى اعتبار الامامة أهم من التوحيد في عقيدة المسلم ! وأفتى آخرون بأن السلطان الكافر العادل أفضل من الجائر .

ثم اسمحوا لي أخيراً بأن أسأل : هل القرآن موجود فعلاً بيننا ؟ .. أعني بأي قدر يساهم في صنع حياتنا الآن ؟

وإذا أذن لي أن أجيب ، فانني أقول : ان القرآن محبوس فعلاً في قفص حديدي يحيط به رجال غلاظ شداد ، وان المعتمد منه فقط هو بعض الصفحات ، بل بعض الكلمات ، التي توظف وتطوع لخدمة أوضاع قائمة ، وأكثرها علينا وليس لنا :

الذين يرفضونه يريدون أن يحاكموه ، والذين يخشونه سعداء لبقائه في قفص الاتهام . وعندما يطلق سراح القرآن ، سوف يطلق سراح هذه الأمة ! !